المحاضرة الثانية عشر/ الموقف من اليهود(قينقاع- النضير- قريظة) عصر الرسالة والخلافة الراشدة/ إعداد الأستاذ الدكتور/ رزاق حسين عبد معين

من الواضح أن اليهود كان يضمرون سوءاً للنبي وللإسلام، فسكوت هؤلاء وقبولهم دستور المدينة ينذر بأن النار تحت الرماد، وسيتفجر الموقف مع الإسلام والمسلمين في أي وقت، فما حدث فيما بعد يشي بذلك حتمًا، فعلى الرغم من أن اليهود ساروا مع الموقف العام من النبي وصحيفته، لكنهم كانوا يترقبون ما ستؤول إليه الأمور لاحقًا، سواءً داخل المدينة أو خارجها وأقصد بذلك هو موقف كبار أعوانهم من الأرستقراطية القرشية. فضلاً عن نظرة الحسد التي أكنّها كبار أحبار اليهود للنبي، فهم كانوا يأملون بأن النبي القادم سيكون إسرائيلي من ذرية النبي أسحق، وليس عربي من أولاد النبي إسماعيل.

وفي الحقيقة أن اليهود لم يستطيعوا التحرك على الدولة الإسلامية الناشئة، والتآمر عليها لولا وجود حاضنة عدائية في المدينة تساعدهم على ذلك، فضلاً عن تحريض قرشيّ مكيّ أيضًا. وفي الواقع أن منافقي المدينة الذين دخلوا في الإسلام ظاهريًا عقدوا تحالفًا مع اليهود؛ لنخر الإسلام من الداخل. فكان اليهود كثيرًا ما يشيعون إفكارًا هدامة ضد الإسلام والمسلمين، مثل الشرك والتكذيب بالبعث والقول بإختلاف بعض ما جاء في القرآن مع التوراة. وفضح القرآن الكريم التحالف بين اليهود والمنافقين في قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ}**.

ولم تقتصر أساليب اليهود التآمرية على التشكيك بالإسلام فحسب، بل تعدى ذلك إلى إعتناق البعض منهم إعتناق الإسلام ظاهريًا، وإضمار الكفر، منهم رفاعة بن زيد التابوت، وسويد بن الحارث، ففضحهم الله تعالى بقوله:**{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ*وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ}**.

ولم يكن إنتماء النبي للعرب مانعًا وحيدًا لليهود من الدخول في الإسلام، بل ثمة أمر آخر منعهم من ذلك أيضًا، ويتجلى ذلك وضوحًا في سيرهم بطريق الشقاق والنفاق؛ من أجل الحفاظ على مكانتهم الإجتماعية- العقدية، فتمكن اليهود وبالذات أحبارهم الذين إعتادوا على الرغد من العيش، مع حيازتهم لأموال طائلة من النذورات التي يقدمها فقراء اليهود لمعابدهم؛ لذا فالتنازل عنها- إذا ما دخلوا الإسلام- سيفقدهم مكانتهم المذكورة والمرتبطة بممارساتهم هذه. فضلاً عن ضرب القرآن الكريم لفكرة شعب الله المختار، في ضوء فضح اليهود وبيان تناقضاتهم وكفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق، في حين أن القرآن

الكريم جعل من السلوك الصحيح، وأفعال الخير الطريق الوحيد لحصول الإنسان على المنزلة المحمودة عند الله(ﷻ).

لقد أثار إنتصار النبي في معركة بدر الخوف في قلوب اليهود والمنافقين، وبدا لهم بأن النبي بجيشه قليل العدد والعدة، قادرًا على مواجهة الخصوم والإنتصار عليهم، إذ ما تعلق الأمر بالدفاع عن حياض الإسلام والدولة. ويبدو أن هذا الإنتصار قد عجّل في المواجهة بين الطرفين، فبعده أشتدت مؤامرات اليهود على النبي ودولته الناشئة، وحصل تعاون بينهم وبين الأرستقراطية القرشية؛ لذا لم يكن أمام النبي خَيار إلاّ مواجهتهم، وإبعاد خطرهم عن المدينة. وفي الواقع أن المواجهة مع اليهود لم تكن في وقت متزامن، أي أن النبي لم يفتح النار على الجميع بجريرة بعضهم، وإنما مع الناقضين لعهودهم من القبائل الكبيرة الثلاث تباعًا وليس دفعة واحدة كما سيتضح لاحقًا، أي أنه (صلى الله عليه وآله) لم يتخذ موقف سلبي من قبيلة يهودية لم تقاتله إنتقامًا من القبائل اليهودية الأخرى.

وثمة سبب آخر لإمتعاض اليهود من المسلمين وهو الجانب الإقتصادي، فاليهود معروفين بأنهم تجار ومرابين في المقام الأول وينظرون لمصالحهم المادية دائمًا ويقدموها على أي شيء آخر؛ لذا شكّل وجود المسلمين في سوق المدينة وعملهم في الحرف الموجودة فيها، فضلاً عن إشتغالهم بالتجارة والبراعة فيها، أمرًا مزعجًا بالنسبة لهم، فهذا الحال يقلل من فرص إحتكارهم للمال والأعمال؛ الأمر الذي دفعهم للتكتل فيما بينهم، والعمل على إحياء التحالفات القبلية التي عقدوها سابقًا مع الكفار من عرب المدينة.

وعلى كل حال أن لهذا لكل حدث مهم وعنيف ثمة سبب مباشر أوقد ناره وأسعر لظاه، ومن أجل الوقوف بشكل علمي على الأسباب بشكل دقيق، لا يمكن الإكتفاء بالأسباب الظاهرية، فحتمًا أن هناك سببًا أو عدة أسباب مباشرة دفعت نحو الصِدام. فمثلاً كان أول الناقضين للصلح مع النبي هم يهود بني قينقاع وذلك على رأس الشهر العشرين من هجرة النبي، ولم يحدث النزال معهم لولا الأسباب المذكورة أعلاه، ساعدها سبب مباشر أسهم وبشكل عاجل في إشعال الصراع مع الدولة الإسلامية بزعامة النبي. ويتضح ذلك في إعتداء اليهود المذكورين على إمرأة مسلمة منقبة كانت تبيع بضاعة لها في السوق، وطلب منها صائغ يهودي أن تكشف عن وجهها، فرفضت طلبه، فقام اليهودي- دون أن تعلم المرأة- بشد طرف ثوبها من الخلف، ولما قامت إنكشفت عورتها، فسخروا منها، فقام مسلم حميةً منه فقتل اليهودي الصائغ، فقام اليهود من بني جلدته بقتل المسلم، وبذلك إندلع نزاع هؤلاء مع النبي.

وإزاء هذا الموقف لم يعتذر اليهود مما بَدَرَ منهم، بل على النقيض من ذلك قرروا مناجزة النبي وحاربوه وتحصنوا في حصونهم، مغرورين بقوتهم العسكرية، ولإتكائهم على حلفائهم من بني عوف من الخزرج وهي قبيلة المنافق عبد الله بن أُبيّ، الذي شجعهم على خوض النزال مع النبي ووعدهم بمساندتهم مهما كانت الظروف. لكن كما يبدو أن شجاعتهم تبخرت بعد طول أمد الحصار الذي دام خمسة عشر ليلة، ورفض حلفاؤهم من عوف مساندتهم؛ لأن الإسلام الغى تلك العهود؛ مما أجبر المنافق عبد الله بن أُبيّ على التوسط لدى النبي ليعفو عنهم، وليغادروا المدينة في مدة أقصاها ثلاثة أيام.

ولم يتعض يهود بني النضير مما حل ببني قينقاع، ولم يستفيدوا من سياسة التسامح التي أبداها النبي معهم، وراحوا يتحينون الفرص للتآمر على النبي، ومحاولة قتله بالذات عندما خسر المسلمون معركة أحد فظنوا أن الوقت حان لتسوية أحقادهم مع النبي. ولعل هذا الأمر كان السبب المباشر الذي أجج الحرب بينهم وبين النبي، وذلك عندما أرادوا قتله عندما ذهب إليهم؛ لمساعدته في دفع دية رجلين قتلهما عمرو بن أمية الضمري في حادثة بئر معونة، فرحّب اليهود في الفكرة أول الأمر، لكنهم حاولوا فيما بعد بواسطة زعميهم المدعو: حُييّ بن أخطب قتل النبي برمي حجارة عليه، وهو مسند ظهره على أحد جدران بيوتهم، وذلك بعد تحريض قريش لليهود وتهديدهم، لكن يبدو أن النبي أحسّ بالمؤامرة، فخرج وأفشل خططهم، وكان ذلك بحدود السنة الرابعة للهجرة.

وبناءً على هذا المستجد التاريخي أرسل النبي محمد بن مسلمة إلى بني النضير يطلب من الجلاء فقط دون أن يقتص منهم، ولم يحرمهم النبي من أموالهم المنقولة وغير المنقولة، لكنهم لم يوافقوا بدفع من عبد الله بن أُبيّ، فعدّ النبي الرفض إعلانًا للحرب. وعلى أيّة حال فقد حاصرهم النبي ست ليال كما قيل، وقيل خمسة عشرة ليلة، فأضطروا للنزول على حكم النبي وأرغمهم على التخلي عن أسلحتهم. وكان للإمام علي بن أبي طالب دور مهم في مقارعة بني النضير؛ ذلك عندما أوكل إليه النبي تصفية أحد أهم رماتهم ويدعى عزور.

وبسبب تعاون اليهود مع قريش وغطفان وبطونها في التحرض على قتال النبي، حصل صراع مع بني قريظة، وذلك في السنة الخامسة من الهجرة، وحصل الصراع معهم مباشرة بعد إنفراط عقد التحالف بين الأحزاب في معركة الخندق. وحاصرهم النبي لمدة خمسًا وعشرين ليلة، دون أي إشتباك معهم. ولما طلبوا من النبي أن يعاملهم برفق كما فعل مع بني قينقاع والنضير، رفض النبي وأصّر على إستسلامهم

دون قيد أو شرط؛ بفعل كثرة مؤامرتهم فقد ضاق النبي ذرعًا بهم وبأذاهم على المسلمين، فطلبوا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ الأوسي؛ لانه حليف لهم فيما سبق، فوافق النبي على طلبهم، فحكم سعد بن معاذ فيهم بقتل المئات من مقاتلهم وسبي ذراريهم وتقسيم أموالهم كغنائم بين المسلمين.

ومن الجدير بالملاحظة أن حكم سعد بن معاذ على اليهود جاء متوافقًا مع أحكام التوراة التي كانت تأمر جيوش اليهود بقتل مقاتلة أعدائهم وسبي ذراريهم ونسائهم، إمعانًا في الأذى ورغبة منهم بكبح جماح أي محاولة من خصومهم للنهوض مرة أخرى، بمعنى أن حكم سعد هذا لم يكن على وفق الشريعة الإسلامية، بل على وفق أحكام اليهود أنفسهم. لكن يبقى ثمة سؤال هل سار النبي على الحكم أم خالفه؟!.

والواضح من نصوص التاريخ أن عدد القتلى غير متفق عليه بالمرة، فهو تراوح بين 13-900، وهذا الفرق هائل ويوجب الشك حتمًا في مصداقية الروايات التاريخية التي تناولت هذا الحدث الكبير، الذي أصّل لتصرفات عسكرية لم يكن الإسلام ليقبل بها أو يقرّها بالمرة. فقتل بشر بهذا العدد دون ذكر عدد المقاتلين الملطخة أيديهم بدماء المسلمين، أمر غير ممكن ولا يحتمل حصوله من النبي؛ لمخالفتها للقيم الإنسانية والأخلاقية التي أُرسِل النبي ليتممها، ولأن السوق وهو المكان الذي أدعي تنفيذ القتل الجماعي فيه صغير لا يمكن أن يستوعب هذا العدد الكبير، إذا ما وافقنا بالطبع على مجمل الروايات. وثمة أمر لا بدّ من الإلتفات له وهو أن الناقل لهذه الأخبار هما: محمد بن كعب القرظي وعطية القرظي؛ لغرس مظلومية قومهم في المخيال الإجتماعي العام، ولأن المزاج العام يقبل هكذا أمر؛ فالعرب حديثي عهد بالإسلام وكانت العرب تغزو بعضها بعض وعمليات السلب والنهب والقتل أمر طبيعي جدًا، فضلاً عن رغبة الوضاع إيجاد جذر تاريخي لتصرفاتهم فيما بعد في موضوع الإبادة الجماعية للخصوم إبّان الفتوح الإسلامية أو تصفية الخصوم السياسيين والثورات التي عصفت بالدول الإسلامية لاحقًا.

وثمة أمر مهم لا ضير من الإشارة إليه وهو: أن الإسلام جاء ليخفف من وطأة العبودية على رقاب الناس، لقوله تعالى:{**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ**}، فكيف يأتي ويضعها مرة أخرى عليهم، وأيضًا كيف يتسق هذا النمط البدوي مع مرحلة بناء المجتمع والدولة بعيدًا عن قيم البداوة، هذا النمط الذي شرع النبي بمحاربته، فالنبي جاء لمقارعة قيم البداوة والعنف، لا أن يركزها أكثر في مجتمع يعاني منها ومن

وطأتها. كما أن النبي بُعِث رحمة للعالمين، فكان يوصي الجنود بعدم قلع الأشجار وقتل النساء والأطفال وأوصاهم بالرفق بكبار السن وحتى الحيوانات، فكيف يقوم النبي بعملية قتل جماعية طالت مذنبين وغير مذنبين بداعي أنهم يهود فهذا لا يمكن أن يكون رحمة بأي حال من الأحوال.

ثم كيف يمكن قبول مقتل هذه الأعداد الكبيرة للرجال مع العلم أن النبي لم يبقي نساء اليهود وأطفالهم في المدينة، فإذا كان قتل رجالهم فما الداعي لإرسال النساء الى خيبر وأقاربهم في بلاد الشام في أذرعات، فالأطفال والنساء لا يشكلون خطرًا بالمرة، فقتل الرجال يكفي بإبعاد خطرهم عن المدينة؟!. فضلاً من أن السبي إهانة للناس وإنما جاء الإسلام ليكرّم الناس جميعًا، ولم يأتي لتكريم المسلمين فحسب، بدليل أن الآيات الكريمة حقنت دم كل البشر ولم تأتي لتحقن دماء المسلمين فقط، إذ قال تعالى:**{مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}**.

وبناءً على ما مرّ يمكن أن يكون النبي قد قتل زعماء اليهود المحرضين على قتال المسلمين، ولعل ما يدعمه قوله تعالى:**{وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا* وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}** . بمعنى أن النبي قتل بعض اليهود وهم القادة والمحرضون وليس الجميع وأستصفى أموالهم؛ لأنها أداة مهمة تساعدهم على عداوة النبي والمسلمين. وبهذا الإجراء- فضلاً عما حلّ ببني قينقاع والنضير- فقد ضعفت مكانة اليهود إلى حدٍ كبير.